جذور عدوان 1967: حفريّات في مشروع السيادة الصهيوني/ الكولونيالي .. (1) بنية الحرب

جذور عدوان 1967: حفريّات في مشروع السيادة الصهيونيّ/ الكولونياليّ .. (1) بُنية الحرب

محمد قعدان

«شعبُ إسرائيل؛ لم يتصالح ولن يتصالح أبدًا مع بترِ أيّة قطعة أرضٍ من جسد الوطن».

مناحيم بيجن، 3 أيلول/ سبتمبر 1947

«دافيد بن غوريون، الذي أبقى اتفاقيّة ما قبل عام 1948 كما هي [اتفاقيّة بينَ إسرائيل والمملكة الأردنيّة]، وصفَ قرار السماح للأردن بالسيادة على الضفة الغربية، بـ ‹البكاء للأجيال› (Crying for generations) وهو ما يعني حرفيًا أن الأجيال القادمة ستندب القرار. قد تختار الترجمة المجازية لكلماتهِ على أن القرار خطأ تاريخيّ فادح»[1].

إيلان بابيه

شهدت المنطقة والأمّة العربيّة بأسرها حربًا في عام 1967 أعادت تشكيل المنطقة، باعتبارها «كارثةً» في جميع معانيها السياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة والدينيّة، إذ إنّ عام 1967، هو المرحلة الثانية والأكثر تأثيرًا في هذا المجال الجغرافي والسياسي من نواحٍ عدّة، في تجسيدات المشروع الصهيونيّ في المنطقةِ. لذا علينا تحديد عدّة ملامح لدراسةِ جذور الحدث، ومعانيهِ، وتسلسلِ تواريخهِ المتشعّبة في ممارساتٍ وحيثيّات على مرور العقدين منذُ إعلان استقلال دولةٍ استعماريّة على الأراضي الفلسطينيّة التاريخيّة.

[1] Pappe, I. (2017). Ten myths about Israel. London ; New York : Verso, 2017, p92

سنتفقّد في هذهِ الدراسة، الحرب من زاويةِ مجتمعِ المستوطنين، وضرورتها التاريخيّة لتثبيت المشروع الصهيونيّ ضمن الأبعاد التالية؛ العسكريّ/ الأمنيّ؛ الاقتصاديّ؛ الأيديولوجيّ. وجميعها تصبّ في استكمال التوسّع والاستيطان، لما هو أبعد من الحدود التي فرضتها حرب التطهير والطرد في عام 1948، ما يجبُ التركيز عليهِ ضمن هذهِ المهام هو قدرتنا على تحليل الخطاب الإسرائيليّ وفهمه، وفهم الدوافع والبنى التي جعلت من الحرب ممكنةً في ظروفٍ تاريخيّة معيّنة.

الدراسة تجتهد لفهمِ الحدث ضمن الضوابط التاريخيّة، ولاستيعابٍ حدودِه وخطابه، إذ إننا نحاول تجنّب الوقوع في مصيدةِ «التحليل بأثرٍ رجعيّ»، لذا ومن خلال تقسيم الدراسة على محورين في الزمن، الأول: استكشاف العوامل التاريخيّة البنيويّة للحدث، وفي هذا المحور نُركز على البنى التي يتأسس عليها المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ في فلسطين، وكيف تطوّرت تلكَ العوامل والبنى ضمن سياقات محدّدة أتاحت للحرب والتوسّع بالولوج، باعتبار أن الزمن في هذا المحور هو زمن البنية وتشكّلها. ثمّ المحور الثاني، هو زمن الأحداث اليوميّة، وهُنا سنحاول رصد التغيّرات والتفاعلات اليوميّة والأرشيفيّة عند المؤسسة الصهيونيّة ما قبل الحرب، وقُبيل الحرب وما بعدها، هكذا نستطيع تتبّع ثوابت الحرب ودوافعها الرئيسية كما تبثّها المؤسسة الصهيونيّة، ومن ثم فهمها.

ونخلق عبر المحورين، محورًا ثالثًا يبيّن لنا التداخلات بينَ البنى التاريخيّة والديناميكيّات اليوميّة عند المشروع الصهيونيّ وقيادتهِ وأجهزتهِ المتعدّدة، وكيف خلقت أساساتٍ جديدةً للمشروع بأوصافه المختلفة: حيازةً للأرض المقدّسة من جهةٍ، واستمرارًا للاستيطان/ العسكريّ العلمانيّ، واكتمالًا لمشروع السيادة الكولونياليّ، من جهاتٍ أخرى.

قراءة في البنية الاستعماريّة الاستيطانيّة

افتتحتُ النصّ بالاقتباسات، لتعطينا لمحةً حولَ الأهميّة الاستراتيجيّة التي يمثلها احتلال عام 1967 أو مشروع السيادة الكولونياليّة على فلسطين التاريخيّة؛ لـ «إسرائيل»، إذ إننا ننطلقُ في هذهِ الدراسة من مقولة أنّ «الاحتلال والتوسّع» هو مسار ضروريّ للاحتلال، وأن مقاومته في عام 1948 أعاقت مجال حركتهِ وهدّدت إمكانيّات توسّعه. في المقابل، فإن الأهداف البنيويّة تستمرّ في الوجود على مستوى الاستراتيجيّة العامّة والأجهزة العسكريّة، ولدينا عدّة طبقات بنيويّة

لخيارِ الحرب والتوسّع الحاصل في عام 1967، والتي سنجتهد في كشفها، وربطها بالنظم الاستعماريّة الاستيطانيّة المحرّكة للصهيونيّة.

الحرب والتوسّع والسيطرة هي ممارسات تتعلّق بالبنية التأسيسيّة للمشروع الصهيونيّ، سأناقش بدايةً تنظيرات حولَ الصهيونيّة وممارساتها البنيويّة، نؤطّر ممارسة الصهيونيّة في مرحلةِ الإعداد؛ منذُ أواخر القرن التاسع عشر في حملات هجرة المستوطنين المكثّفة، مرورًا بإنشاء صناديق التمويل الأوروبيّة لـ «شراء الأراضي»، وصولًا إلى بناء المستوطنات والحاميات والكتائب المسلّحة والمشاريع الاقتصاديّة والزراعيّة والسياسيّة؛ وما تلا ذلك من مرحلة الإنشاء في عام 1948، إلى أن نصل مرحلة الاكتمال في عام 1967، بالمعنى الأيديولوجيّ، لا المادي.

ماذا أقصد بالحربِ الحتميّة أو الضروريّة؟ المقصود أنّ خيار الحرب هو الأكثر قبولًا عند المؤسسة الصهيونيّة ضمن شروط تاريخيّة تطوّرت في ظلّ البنية الاستعماريّة الاستيطانيّة؛ وفهم ذلك يتطلّب منّا أولًا استيعاب مقولة البنية الاستعماريّة الاستيطانيّة وتطوّرها؛ ثمّ علينا فهم شرطها التاريخيّ في ستينيّات القرن الماضي، والتي أتاحت ودفعت بإمكانيّة الحرب.

أطّر فايز الصايغ مبكرًا، منذُ عام 1965، «إسرائيل» بوصفها دولةً استعماريّةً استيطانيّةً، تمتاز بثلاث صفات جوهريّة -ومن المهمّ الانتباه إلى أنّ مؤلّفه صدر قبل عام الحرب، وهذا ما يجعلهُ مهمًا من حيثُ مضمونهُ، وأيضًا من حيثُ موقعه في التأطير العربيّ الفلسطينيّ للمشروع الصهيونيّ الجاري-:

- الصفة الأولى التي يتحدّث عنها هي **العنصريّة**؛ يرى الصايغ أن جذورها أوروبيّة استعماريّة، ولكن معانيها وتجسيدها في فلسطين، يختلف عن تجارب أخرى. فالعنصرية الإسرائيلية تمتلك ثلاث آليات: **الأولى التفرقة الذاتيّة**، أي أنّها تتأسّس على الفصل والتفرقة بينَ اليهود والعرب مقابل آليات «الاستيعاب والاندماج»[2]. **والآلية الثانية هي الاستثناء العنصريّ**، بمعنى حصر مُجمل الحقوق ضمن مجال جغرافيّ سياسيّ (هو فلسطين)، في عرقٍ واحد، وهُنا يكمن الاستثناء العنصريّ، وتَجَسُّدُ ذلك في الممارسات التي اندرجت تحت العناوين التالية :»العمل العبريّ» و»احتلال العمل» و»احتلال الأرض» ومرحلة بناء المؤسسات العنصريّة الصهيونيّة. وأخيرًا تأتي **الآلية الثالثة وهي التفوّق العنصريّ**، الذي انتهى إلى طردِ الفلسطينيين من أرضهم، إذ إنّ التفوّق العنصريّ يتأسّس على التفرقة والفصل، ثمّ الاستثناء،

2 فايز الصايغ (1965). الاستعمار الصهيوني في فلسطين، مطبوعات أفريقيّة آسيويّة (22). مركز البحوث بمنظمّة التحرير الفلسطينية. 28- 39

وأخيـرًا التفـوّق، بمعنـى تشـريع عمليّـة الطـرد والتهجيـر في عـام 1948، ضمـن محـرّك تفـوّق اليهـود الـذي يقـود إلـى «تطهيـر الأرض» ممّـن لا يرضـون بهـذهِ المقولـة.

- **الصفـة الثانيـة هـي «العنـف والإرهـاب»**: إن مـا يميّـز الصايـغ هـو عملـه على تحديـد الصفـات الجوهريّـة، أو الملامـح البنيويّـة للمشـروع الصهيونـيّ، عبـر التطـوّر التاريخـيّ لتشـكّل بنيتـه تدريجيًـا، فهـو يسـرد لنـا تاريخًـا زمنيًـا للمشـروع الصهيونـيّ، ويسـرد كذلـك تطـوّر صفاتـهِ، أي تمظهرهـا ماديًـا، وانكشـافها في الواقـع[3].

- وتبعًـا لذلـك يطـرح **الصفـة الثالثـة**، وهـي التـي تهمّنـا في سـياق النـصّ، وهي ما يسـمّيه **«التوسّـع الإقليمـيّ»**، وهُنـا يبـرز تحليلـهُ الذكـي في نظـره إلـى الراهـن، والثاقـب في قراءتـه المسـتقبل: «إن التوسّـع الإقليمـيّ يشـكل العنصـر الثالـث للمخطّـط الصهيونـيّ. وفي هـذا المجـال أيضًـا، اسـتخدمت الصهيونيّـة خدعتهـا المضلّلـة، وهـي الإنـكار العلنـيّ، حتـى يمكنهـا إخفـاء نواياهـا الحقيقيّـة. ولا يختلـف هـذا العنصـر الثالـث، عـن العنصريـن السـابقين إلّا في هـذهِ النقطـة: بينمـا هـذان الهدفـان قـد تحققـا وانتُـزع القنـاع في نهايـةِ الأمـر، فـإن الهـدف الثالـث (وهـو التوسّـع الإقليمـي) يظـلّ متحققًـا جزئيًـا ويظـلّ الحجـاب مرفـوع جزئيًـا».[4] وأضـاف إلـى ذلـك في نهايـةِ حديثـهِ عـن التوسـع الإقليمـي: «فـإن العنصـر الثالـث وحـدهُ هـو الـذي لـم يـزل غيـر متحقّـق. وهـذا هـو العمـل الـذي لم يتـمّ، للصهيونيّـة. غيـر أن ذلـك العنصـر لـن يلبـث حتـى يُصبـح الشـغل الشـاغل في المسـتقبل للحركـةِ الصهيونيّـة والدولـة الصهيونيّـة»[5].

بالطبـع نُشـرت هـذهِ الكلمـات قبـل أن تَشـنّ «الدولـة اليهوديّـة» حروبَهـا التوسـعيّة على الـدولِ العربيّـة والشـعبِ الفلسـطينيّ، باعتبـار أن هـذهِ الحـرب هـي تجسّـد الصفـة الثالثـة التـي تحـدّث عنهـا فايـز الصايـغ، إذ إنّـه لاحـظ أن بنيـة «إسـرائيل» تشـير إلـى عـدم إمكانيـة التزامهـا بحـدودٍ مـا، مـا يؤهلهـا دائمًـا لاحتماليّـات التوسّـع وشـنّ الحـروب.

---

٣ المصدر نفسهُ. 39- 41

٤ المصدر نفسه. 43

5 المصدر نفسهُ. 47

وفي هـذا الصـدد، رأى ماكسـيم رودنسـون أن العـدوان في عـام 1967 مُرتبـط أساسًـا ببنيـة الدولـة التوسـعيّة، وأقتبـس: **«في عـام 1948، وُضعـت «نظريـة الترانسـفير» [الطـرد والتهجيـر] موضـع التنفيـذ، ولـم ينتـج عـن ذلـك احتجـاجُ غربـيُ. لكـن، في عـام 1967، خرجـت إسـرائيل بوضـوح مـن الحـرب على أنّهـا قـوة عدوانيّـة، توسـعية واحتلاليّـة، أصبحـت تحكـمُ مسـاحات عربيـةً جديـدةً واسـعةً بأعـداد كبيـرة مـن الجماهيـر»**[6]. تتضـح عنـد رودنسـون العلاقـة بيـنَ العـدوان عـام 1967 مـن جهـةٍ، والطابـع التوسـعيّ مـن جهـةٍ أخـرى، في الدولـة اليهوديّـة. وبالنسـبةِ إليـهِ فـإن الطابع التوسـعيّ الـذي تتّسـم بـهِ الدولـة اليهوديّـة، ناتـج عـن الطابـع التوسـعيّ الاسـتعماريّ الأوروبـيّ، باعتبـاره المؤثّـر على شـروط تطـوّر الصهيونيّـة وممارسـاتها الاسـتعماريّة. قائـلًا: **«أتاحـت أوروبيّـة المنظّمـة الصهيونيّـة لهـم تقديـم مشـروعهم على أنّـه جُـزء مـن حركـة التوسّـع الأوروبيّـة التـي كان كلّ فـرد يُطورهـا بمفـرده. ومـن هنـا جـاءت التصريحـات العديـدة التـي تشـير إلـى أنـه مـن المصلحـة العامـة لأوروبـا أو الحضـارة الغربيّـة، أو حتـى مـن المصلحـة الخاصـة لهـذهِ القـوة الاسـتعماريّة أو تلك، دعـم الحركة الصهيونية. كان هذا طبيعيًا تمامًا نظرًا للظروف التاريخيّة تلك الفترة»**.

ولفـتَ إسـماعيل ناشـف إلـى أنّ الصهيونيّـة تتجسّـد عبـر «صناعـة الحـدّ» في ثلاثـة مواضـع؛ الـدمّ؛ الزمـن؛ المـكان (الغيتـو المتخيّـل)، إذ إنّ الطابـع التوسـعيّ للصهيونيّـة ينبنـي على أسـاس «حـدّ الـدم»، الـذي ينقسـمُ إلـى مجـال أفقـيّ، وهـو مـا يسـمّيه بـ»الـدمّ النـازف»، إجابـةً على سـؤال عـدم انكفـاء الصهيونيّـة في حدودٍ جيوسياسـيّة، باعتبـار أنّ «الـدمّ النـازف» يعبّـر عـن تتالـي الأحـداث الأفقيّـة مـن معـارك واحتـلالٍ واسـتيطان، والتـي تقـوم بهـا الصهيونيّـة بالتـوازي مـع القيمـة العموديّـة الثابتـة لـ»حـدّ الـدم» الهـادف إلى تشـكيل الجماعـة الصهيونيّة والكيـان القوميّ- الاسـتعماريّ. وينتـج عـن العلاقـات المركّبـة بيـن الاثنيـن «الدافـع المتضمَّـن في بنيـة العلاقـات الاسـتعماريّة- للتوسّـع والسـيطرة على أنـواع مـن الفضـاء وأزمنـة جديـدة».[7]

---

[6]Rodinson, M. (1973). Israel: a colonial-settler state?. New York: Monad Press; distributed by Pathfinder Press. p16

٧ إسماعيل، ناشف. (2020). عمل الحدّ: قراءة مختلفة للصهيونيّة. مجلّة تبيّن للدراسات الفلسفيّة والنظريّات النقديّة، 9/ 34. صفحة 45-79